

فنون لازمة للقيادة الأسرية الناجحة

بقلم

د. بتول حازم الشوكي



حين تُذكر كلمة القيادة، ينصرف الذهن غالبًا إلى مواقع العمل والإدارة والسياسة، وإلى من يملك القرار ومن يوجه الآخرين، غير أن القيادة التي تترك أعماق أثر في حياة الإنسان ليست بالضرورة تلك التي تُمارس في المؤسسات، بل تلك التي تبدأ داخل البيت؛ حيث تتشكل الشخصية الأولى، وتتكون صورة الإنسان عن نفسه وعن الآخرين وعن معنى المسؤولية.

فالأُسرة لا تحتاج إلى رئيس يصدر الأوامر وينتظر الطاعة، بقدر ما تحتاج إلى قيادة واعية تمنح أفرادها الأمان، وتضع الحدود، وتدير الاختلاف، وتحتوي الأزمات، وتساعد الأبناء على الانتقال من الاعتماد إلى الاستقلال. ومن هنا تبدو القيادة الأسرية أقرب إلى الرعاية منها إلى السلطة، وهذا المعنى يختصره الحديث النبوي الشريف: **كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**، فالرعاية ليست جانبًا هامشيًا في القيادة، بل هي جوهرها؛ لأن من يقود الأسرة مسؤول عن الإنسان الذي ينمو في داخلها، لا عن انتظام البيت في ظاهره فقط.

القيادة الأسرية شراكة

من التصورات الشائعة أن القيادة الأسرية مسؤولية الأب وحده، وأنها تتمثل أساسًا في توفير المال، واتخاذ القرارات، وفرض النظام، غير أن الأسرة في واقعها أكثر تعقيدًا من أن تُدار بهذه الصورة الأحادية. الأب والأم شريكان في بناء البيئة الأسرية، وقد تتوزع بينهما الأدوار بحسب طبيعة شخصيتيهما وظروفهما وإمكاناتهما، وقد يكون أحدهما أكثر قدرة على الحزم في موقف، بينما يكون الآخر أكثر قدرة على الاحتواء والحوار في موقف آخر، وقد يتبادل الطرفان هذه الأدوار من مرحلة إلى أخرى. وهنا تظهر قاعدة مهمة هي أن القيادة الأسرية ليست لقبًا ثابتًا، وإنما مسؤولية تتقدم إلى من يستطيع أداءها في الموقف المناسب.

ولا يعني هذا إلغاء المرجعية أو الحدود داخل الأسرة، بل يعني أن قوة الأسرة لا تأتي من إلغاء أحد الأطراف، وإنما من تكامل أدوارهما، فالطفل الذي يرى والديه مختلفين في الرأي، ثم يراهما يتحاوران ويحترم كل منهما الآخر ويصلان إلى قرار متوازن، يتعلم درسًا في إدارة الاختلاف قد يكون أعماق من عشرات الدروس النظرية. إن استقرار العلاقة بين الوالدين لا يبقى محصورًا بينهما؛ بل ينتقل أثره إلى الأبناء، فالبيت منظومة مترابطة، وما يحدث في العلاقة بين الكبار ينعكس بدرجات مختلفة على شعور الصغار بالأمان وعلى سلوكهم وثقتهم بأنفسهم.

الفنون التي تصنع قائدًا أسريًا مؤثرًا

القيادة داخل البيت لا تحتاج إلى خطب طويلة ولا إلى أساليب تربوية معقدة بقدر حاجتها إلى ممارسات صغيرة تتكرر كل يوم، ومن أهم هذه الفنون:

أولًا: القدوة قبل التوجيه: من السهل أن نقول للطفل: كن صادقًا، أو اضبط غضبك، أو احترم الآخرين، لكن السؤال الأهم: ماذا يرى الطفل عندما يراقبنا؟

الأبناء يتعلمون من سلوك الوالدين قبل أن يتعلموا من كلماتهم، فإذا رأى الطفل أباه يعترف بخطئه، وأمه تضبط انفعالها، وشاهد الاحترام حاضرًا في طريقة حديثهما، فإنه يتلقى التربية من خلال المشاهدة اليومية دون أن يشعر أنه في درس تربوي.

ولهذا فإن السؤال الذي ينبغي أن يسبق كثيرًا من نصائحنا لأبنائنا هو: هل يرون فينا ما نطلب منهم أن يكونوا عليه؟ فالدوة لا تلغي التوجيه، لكنها تمنحه المصداقية.

ثانيًا: الإنصات وبناء الأمان: من أعظم احتياجات الإنسان أن يجد مكانًا يستطيع فيه أن يتحدث دون خوف من السخرية أو الإهانة أو التوبيخ المبالغ فيه، والبيت الذي يحقق هذا الشعور يصبح قاعدة أمان يعود إليها الأبناء في لحظات الخطأ والحيرة والضعف. ولا يعني الإنصات أن يوافق الوالدان على كل ما يقوله الابن، ولا أن يتخلوا عن دورهما في التوجيه؛ بل يعني أن يفهما قبل أن يحكما، وأن يستمعا قبل أن يصدرا القرار. وقد تبدو كلمة بسيطة من الأب مثل حدثني بما حصل أكثر تأثيرًا من سلسلة طويلة من الأسئلة الاتهامية، فالابن الذي يثق بأنه سيجد في بيته من يسمعه، يكون أكثر استعدادًا للرجوع إليه حين يواجه مشكلة حقيقية. وهنا يصبح الحوار وسيلة للوقاية، لا مجرد أسلوب لمعالجة الأخطاء بعد وقوعها.

ثالثًا: الحزم الذي تحميه الرحمة: الحب وحده لا يكفي لبناء أسرة متوازنة، كما أن الحزم وحده قد يحول البيت إلى بيئة طاردة.

يحتاج الأبناء إلى حدود واضحة: مواعيد للنوم، ومسؤوليات دراسية، وضوابط لاستخدام الأجهزة، واحترام للوالدين والإخوة الآخرين، لكن قيمة هذه الحدود لا تتوقف على وجودها، بل على الطريقة التي تُفرض بها. الحزم الصحي لا يعني رفع الصوت أو التهديد، وإنما يعني أن تكون القواعد واضحة، وأن تكون العواقب معروفة، وأن تُطبق بعدل، وأن يظل باب الحوار مفتوحًا. فالطفل يحتاج إلى أن يعرف أن هناك حدودًا لا يجوز تجاوزها، لكنه يحتاج في الوقت نفسه إلى أن يشعر أن الخطأ لا يسقط عنه المحبة ولا يغلق أمامه باب العودة. وهذه هي المسافة الدقيقة بين الحزم الذي يبني الشخصية، والقسوة التي تكسرها.

رابعًا: العدل الذي يمنع المقارنة: العدل بين الأبناء ليس مجرد قضية تربوية ثانوية؛ إنه من الأسس التي تحمي علاقاتهم ببعضهم وبوالديهم. وقد يبدأ الشعور بالتمييز من تفاصيل تبدو صغيرة: مدح أحد الأبناء باستمرار، أو مقارنة طفل بآخر، أو إظهار تفضيل واضح في الهدايا أو الاهتمام أو الثقة. حين يشعر الطفل أن مكانته في الأسرة مرتبطة بكونه الأفضل أو الأكثر نجاحًا، فقد يتحول إخوته في نظره من شركاء في البيت إلى منافسين على الحب والقبول.

ولهذا جاءت التوجيهات الدينية بالتأكيد على العدل بين الأولاد، لأن العدل لا يحفظ علاقة الأبناء بوالديهم فحسب، بل يحمي أيضًا الروابط بينهم.

حين تتحول القيادة إلى مصدر للمشكلة

قد يبدأ الوالد حياته الأسرية وهو يريد الخير لأبنائه، لكنه مع مرور الوقت قد يمارس سلوكيات تقوض الهدف الذي يسعى إليه.

من أخطر هذه السلوكيات التسلط وإلغاء الرأي، فحين تصبح كل القرارات أوامر، وكل مخالفة عصيًّا، وكل نقاش تحديًّا لسلطة الوالد، يتعلم الأبناء شيئًا مختلفًا عما يريده الوالدان: يتعلمون إخفاء آرائهم بدل التعبير عنها، والخوف من الخطأ بدل التعلم منه. والقيادة التي لا تسمح بالحوار قد تحصل على الطاعة الظاهرة، لكنها تخسر شيئًا أهم هي القناة الداخلية.

ومن الأخطاء كذلك الغياب العاطفي، فأن يوفر الأب أو الأم احتياجات الأسرة المادية ثم يظن أن المهمة انتهت، هو اختزال لدور الأسرة في جانب واحد، فالأبناء لا يحتاجون إلى من ينفق عليهم فقط، وإنما إلى من يسألهم عن يومهم، ويلاحظ تغيراتهم، ويفرح بإنجازاتهم، ويكون حاضرًا في لحظات ضعفهم.

كذلك فإن تفريغ ضغوط الحياة في المنزل من أكثر ما يستنزف الرصيد العاطفي للأسرة، فالعمل، والمشكلات المالية، والضغوط الاجتماعية، كلها أعباء حقيقية، لكن نقلها بصورة مستمرة إلى البيت يجعل المكان الذي يفترض أن يمنح الراحة مصدرًا إضافيًا للتوتر.

ومن الأخطاء شديدة الأثر أيضًا إضعاف أحد الوالدين أمام الأبناء، فالاختلاف بين الزوجين أمر طبيعي، لكن تحويل هذا الاختلاف إلى اتهام أو سخرية أو انتقاص أمام الأبناء يربكهم، ويضعف احترامهم للطرفين، ويجعلهم طرفًا في صراع ليس لهم أن يحملوا تبعاته.

القيادة في عصر الشاشات

ربما لم تواجه الأسرة الحديثة تحديًا يشبه تحدي الانفتاح الرقمي، فالأبناء يعيشون في عالم لا تتوقف فيه المعلومات، ولا تنحصر مصادر التأثير في البيت أو المدرسة. ولهذا لم يعد التعامل مع الشاشات ممكنًا بمنطق المنع وحده، فالمصادرة قد تمنع جهازًا، لكنها لا تبني وعيًا، والمطلوب هو الانتقال من الرقابة الخارجية وحدها إلى بناء الرقابة الداخلية.

وهذا يبدأ من الحوار: ماذا يشاهد الأبناء؟ لماذا يجذبهم؟ ما الذي يجدونه في العالم الرقمي ولا يجدونه في حياتهم الواقعية؟ وما الحدود التي ينبغي أن يلتزموا بها؟

وكلما شارك الوالدان أبناءهما بعض اهتماماتهم وفهما عالمهم، أصبح التوجيه أكثر قربًا وأقل تصادمًا، فالهدف ليس أن يظل الأبناء تحت المراقبة إلى الأبد، وإنما أن يصبحوا قادرين على اتخاذ القرار الصحيح عندما لا يكون الوالدان موجودين.

الفجوة بين الأجيال

من الأخطاء التي قد يقع فيها بعض الآباء أن يحاولوا إعداد أبنائهم للحياة التي عاشوها هم، لا للحياة التي سيعيشها الأبناء.

لقد تغيرت وسائل التعلم والعمل والتواصل، وتغيرت معها بعض احتياجات الجيل الجديد وتحدياته، وهذا لا يعني أن القيم الأساسية تغيرت؛ فالصدق والأمانة والمسؤولية والاحترام قيم تتجاوز الأزمنة، لكن طريقة تقديم هذه القيم وتطبيقها تحتاج إلى فهم للواقع.

فالقيادة الحكيمة لا تعني أن يتخلى الوالدان عن مرجعيتهم، ولا أن يذوبوا في كل جديد، وإنما أن يميزوا بين ما هو قيمة ثابتة وما هو وسيلة متغيرة. إن الأب الذي يقول لابنه: في زماننا لم نكن نفعل هذا، لا يقدم بالضرورة حجة مقنعة؛ لأن السؤال الذي يواجهه الابن هو: لكننا اليوم نعيش في زمان مختلف، فكيف أتصرف فيه؟ ومن هنا تأتي الحاجة إلى قيادة تجمع بين ثبات القيم ومرونة الوسائل.

صناعة إنسان قبل إدارة منزل

في النهاية، لا تُقاس جودة القيادة الأسرية بمدى هدوء المنزل فقط، ولا بعدد الأوامر التي ينفذها الأبناء، ولا بغياب المشكلات.

الأسرة الناجحة ليست الأسرة التي لا تختلف، وإنما التي تعرف كيف تختلف دون أن تفقد محبتها، وكيف تضع الحدود دون أن تفقد رحمتها، وكيف تصحح الخطأ دون أن تهدم كرامة المخطئ.

فالقيادة الأسرية الحقيقية هي أن تجعل أبنائك أكثر قدرة على الحياة، لا أكثر خوفًا منك؛ وأن تجعلهم يعودون إليك عند الحيرة، لا أن يبحثوا عن إجاباتهم بعيدًا عنك؛ وأن تربي فيهم الضمير الذي يعمل حتى في غياب الرقابة.

وهنا يتجاوز دور الوالدين مجرد إدارة البيت إلى بناء الإنسان. فالبيت الذي يقوده الوالدان بالتكامل، وتُحكم علاقاته بالعدل، وتُدار اختلافاته بالحوار، ويجتمع فيه الحزم بالرحمة، لا يربي أبناء أكثر انضباطًا فحسب؛ بل يربي أناسًا أكثر ثقة بأنفسهم، وأقدر على تحمل المسؤولية، وأكثر استعدادًا لبناء أسر ومجتمعات مستقرة. ولعل أجمل ما يمكن أن يُقال في القيادة الأسرية، إن نجاحك كقائد في بيتك لا يظهر في مقدار ما يطيعك أبنائك، بل في مقدار ما يصبحون قادرين على أن يفعلوا الصواب حين لا تكون بجانبهم.

في الختام من خلال ما سبق، يمكن استخلاص عدد من النتائج التي توضح طبيعة القيادة الأسرية الناجحة وأثرها في بناء الأسرة:

1. القيادة الأسرية رعاية ومسؤولية قبل أن تكون سلطة وقرارًا؛ فالقائد الأسري الناجح لا يُقاس بقدرته على فرض الطاعة، وإنما بقدرته على توفير الأمان، وتنظيم الحياة الأسرية، وتوجيه أفرادها نحو النضج وتحمل المسؤولية.

2. نجاح القيادة الأسرية مرتبط بتكامل الوالدين؛ فاستقرار العلاقة بين الأب والأم، واحترام كل منهما لدور الآخر، والقدرة على إدارة الاختلاف بعيدًا عن الأبناء، ينعكس بصورة مباشرة على شعورهم بالأمان واستقرارهم النفسي والاجتماعي.

3. السلوك أكثر تأثيرًا من التوجيه المجرد؛ فالقدوة اليومية التي يقدمها الوالدان في الصديق وضبط الانفعال والاحترام وتحمل المسؤولية تمنح القيم التربوية مصداقيتها، وتجعل الأبناء أكثر استعدادًا لتبنيها.
4. الأمان النفسي شرط أساسي للتربية الفاعلة؛ فالابن الذي يشعر بأنه يستطيع الحديث عن أخطائه ومشكلاته دون خوف مفرط، يكون أكثر قربًا من والديه وأكثر استعدادًا لطلب النصيح والاحتكام إليهما عند مواجهة التحديات.
5. الحزم والرحمة ليسا متعارضين؛ فالأسرة تحتاج إلى حدود واضحة وقواعد ثابتة، لكنها تحتاج في الوقت نفسه إلى أن تُطبق هذه الحدود بعدل وهدوء ورحمة، والحزم الذي يخلو من الرحمة قد ينتج انضباطًا ظاهريًا، لكنه لا يضمن بناء قناعة داخلية.
6. العدل بين الأبناء يحمي الأسرة من المنافسة السلبية؛ فالمقارنة والمفاضلة المستمرة قد تزرع الغيرة وتضعف الروابط الأخوية، بينما يؤدي العدل في المعاملة والاهتمام إلى تعزيز الانتماء والثقة.
7. الطاعة الظاهرة ليست المؤشر الحقيقي لنجاح القيادة؛ فقد يطيع الأبناء خوفًا من العقاب، لكن النجاح الأعظم يظهر عندما يتحول التوجيه إلى قناعة، ويصبح الابن قادرًا على اتخاذ القرار السليم في غياب الرقابة.
8. القيادة الأسرية مطالبة بالتكيف مع تغير العصر دون التفريط في الثوابت؛ فالتحديات الرقمية والفجوة بين الأجيال لا تعالج بالمنع أو الرفض وحدهما، وإنما بفهم الواقع، والحوار، وبناء الوعي والرقابة الذاتية.
9. الغاية النهائية للقيادة الأسرية ليست إدارة المنزل، وإنما بناء الإنسان؛ فالأسرة الناجحة لا تكتفي بإنتاج أبناء منضبطين، بل تسعى إلى تنشئة أفراد يمتلكون الثقة والمسؤولية والقدرة على الاختيار وإدارة حياتهم بصورة مستقلة وواعية.

واستنادًا إلى هذه النتائج، يمكن تقديم عدد من التوصيات العملية لتعزيز القيادة الأسرية:

1. تعزيز الشراكة بين الوالدين من خلال الاتفاق على القيم والقواعد الأساسية التي تحكم الأسرة، وتجنب إظهار الخلافات أمام الأبناء أو استخدامهم طرفًا في النزاعات الزوجية.
2. تحويل القيم إلى ممارسات يومية؛ فلا يكفي الحديث عن الصديق والاحترام وضبط الغضب، بل ينبغي أن يرى الأبناء هذه القيم مجسدة في سلوك والديهم وتعاملاتهم اليومية.
3. تخصيص وقت منتظم للحوار الأسري، بحيث يجد كل فرد فرصة للتعبير عن أفكاره ومشكلاته واحتياجاته، دون أن يتحول الحوار إلى جلسة تحقيق أو محاكمة.
4. وضع قواعد أسرية واضحة ومتفق عليها، ولا سيما فيما يتعلق بالنوم والدراسة واستخدام الأجهزة والواجبات المنزلية والعلاقات الاجتماعية، مع مراعاة أعمار الأبناء واختلاف احتياجاتهم.
5. استبدال العقاب الانفعالي بالعواقب التربوية؛ بحيث يرتبط الخطأ بنتيجة واضحة ومتناسبة معه، مع الحفاظ على كرامة الابن وإبقاء باب الإصلاح مفتوحًا.
6. الابتعاد عن المقارنة بين الأبناء، وتوجيه الاهتمام إلى تطور كل ابن بحسب قدراته واستعداداته، مع الحرص على العدل في الحب والاهتمام والمعاملة.

7. بناء وعي رقمي داخل الأسرة، من خلال مشاركة الأبناء بعض اهتماماتهم الرقمية، ومناقشة ما يشاهدونه ويتعرضون له، ووضع ضوابط واضحة لاستخدام الأجهزة، مع العمل تدريجيًا على تنمية قدرتهم على الرقابة الذاتية.
8. التمييز بين الثوابت والمتغيرات عند التعامل مع الأبناء؛ فالقيم الأساسية ينبغي أن تبقى راسخة، بينما يمكن أن تتغير أساليب التربية ووسائل التواصل بما يتناسب مع واقع الجيل الجديد.
9. مراجعة الوالدين لأسلوبهما القيادي بصورة دورية، من خلال طرح أسئلة بسيطة على أنفسهما: هل يسمع أبنائنا منا أكثر مما يخافون؟ هل نطبق عليهم ما نطلبه منهم؟ هل يعرفون أنهم يستطيعون العودة إلينا عند الخطأ؟ وهل نربيهم على الاعتماد علينا أم على الاعتماد على أنفسهم؟
10. جعل الاستقلال هدفًا تدريجيًا للتربية؛ فكل مرحلة عمرية ينبغي أن تمنح الأبناء مساحة مناسبة لاتخاذ القرار وتحمل النتائج، حتى ينتقلوا من الطاعة القائمة على الرقابة الخارجية إلى المسؤولية القائمة على الوعي والضمير.
11. الاستثمار في تأهيل الوالدين؛ لأن حسن النية وحده لا يكفي دائمًا للقيام بدور تربوي معقد، وتحتاج الأسرة إلى نشر الثقافة الوالدية ومهارات التواصل وإدارة الخلاف وفهم مراحل نمو الأبناء.

تأسس مركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية في بغداد بموجب شهادة التسجيل الصادرة عن الأمانة العامة لمجلس الوزراء -دائرة المنظمات غير الحكومية المرقمة (1J775330) بتاريخ ٢٦/٤/٢٠١٢، وهو مركز علمي بحثي يهتم بإجراء الاستطلاعات والدراسات الميدانية فضلاً عن إعداد الأوراق البحثية والمقالات حول قضايا الحياة المجتمعية للأسرة والمواطن، والدولة بمؤسساتها المختلفة.

- لا يجوز نشر أي من إصدارات المركز ونتائجته العلمية الا بموافقة خطية صريحة ويمكن الاقتباس بشرط ذكر المصدر كاملاً.
- حقوق الطبع والنشر محفوظة لمركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية

للتواصل

00964- 7710122232



Alfaydhcenter2011@gmail.com



www.al-faydh.com



العراق - بغداد - الكرادة

